

العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبية (- دراسة تحليلية مقارنة)
(Arab rhetoric and stylistic - a comparative analytical study)

الطالبة: عقيلة أرزقي

المشرف: د. محمد زقاوي

جامعة البليدة 2- عليّ لونيبي، العفرون-البليدة(الجزائر)

unuverblida@gmail.com

الملخص:

البلاغة من العلوم العربية القديمة التي كانت ولوقت طويل إحدى المقاييس النقدية وذلك في أطوارها المزهرة قبل أن يصل بها المطاف إلى الجمود، فكان من الطبيعي أن يظهر علم آخر جديد -يشبهها لحدّ ما- يساير التطورات الحاصلة في الميدان اللغوي كالأسلوبية باعتبارها فرع عن اللسانيات الحديثة، لذا يرى الكثير من الباحثين العرب أنّ الأسلوبية وليدة الغرب، في حين أنّ فريقا آخر منهم يرى أنّ جذور الأسلوبية في البلاغة القديمة.

وانطلاقا من هذين الرأيين، كان هذا البحث الموسوم بـ: (البلاغة العربية والأسلوبية - دراسة تحليلية مقارنة-) للفصل في قضية نشأة الأسلوبية، ومدى صحّة امتدادها للبلاغة العربية القديمة، وللبحث عن العلاقة بينهما من خلال تسليط الضوء على أهمّ نقاط التشابه والاختلاف، بعد تحديد مفهومهما وعرض تاريخي لأهمّ محطات نشأتهما وتطوّرهما، للكشف عن مدى التداخل بين البلاغة والأسلوبية، على الرغم من احتفاظ كلّ منها بخصوصيته، وهو ما صنع التميّز والانفراد.

الكلمات المفتاحية: البلاغة، الأسلوبية.

Summary:

The rhetoric of ancient Arabic science, which was a long-time monetary standards in the stages of flowering before reaching the deadlock, it was natural to show another new science is similar to some developments in the field of linguistics as stylistic as a branch of modern linguistics, Many Arab scholars are stylistic that the birth of the West, while another group of them believes that the roots of stylistic in ancient rhetoric .

Based on these two views, this research was characterized by: (Arab rhetoric and stylistic - a comparative analytical study -)the chapter on the issue of the origin of

Stylistic and the validity of the extension of the ancient Arabic rhetoric, and to search for the relationship between them by highlighting the most important points of similarities and differences, History of the most important stations of their inception and development, to detect the extent of overlap between rhetoric and stylistic, although each retained its privacy, which made excellence and exclusivity.

Keywords: *rhetoric, stylistic.*

تقديم:

قامت دراسات موسّعة وجادة في البلاغة العربية القديمة، وتناولتها نشأة وتطوراً، والمتأمل فيها اليوم يجدها قد اتّجهت نحو البحث الأسلوبيّ الحديث، لذا اهتم الباحثون كثيراً بالدّرس البلاغيّ الأسلوبيّ، ولعلّ هذه الدّراسة واحدة من حيث هذه الاهتمامات، التي تهدف إلى الفصل في نشأة الأسلوبية، بعدما اختلف في نشأتها، فانقسم الباحثون إلى قسمين، قسم يرى أنّها غربيّة المنشأ، وقسم آخر يرى أنّ لها امتداداً بالبلاغة العربيّة، كما وسيكشف عن العلاقة الرابطة بينهما، ومن هنا كان لنا هذا التّساؤل: فهل الأسلوبية غربيّة أم عربيّة الأصل؟، ما طبيعة العلاقة التي تجمع الأسلوبية بالبلاغة العربيّة؟، فيما تكمن أوجه الائتلاف والاختلاف بين البلاغة العربيّة والأسلوبية؟.

ولعلّ هذه الإشكاليّة فتحت أمامنا مجموعة من التّساؤلات، وهي: ما البلاغة؟، وما الأسلوبية؟، وهل هي أسلوبية واحدة أم أسلوبيات؟، والمتتبّع للأسلوبية في كتب الدّراسات الحديثة يجدها تعتمد أكثر من مصطلح: الأسلوبية، وعلم الأسلوب، والأسلوبيات، فأردنا البحث عن ذلك: هل هذه المصطلحات مرادفات فيما بينها؟، هل لها التّدوال نفسه الذي تلقاه الأسلوبية اليوم؟، وقد جعلت هذه التّساؤلات قبل الحديث عن مفهوم الأسلوبية عند العرب وعند الغرب ليكون هناك مصطلحاً واحداً يؤسّس لهذه الدراسة وتتبّناه.

أولاً: البلاغة.

البلاغة لغة تعني الوصول والانتهاء¹، أمّا اصطلاحاً فقد لقت عدّة تعريفات قديماً وحديثاً، ومنها: "هي كلّ ما يبلغ فيه المعنى قلب السّامع فتمكّنه في نفسك مع صورة مقبولة، ومعرض حسن"²، فهي إيضاح للمعنى وتحسين لللفظ معاً، وقيل: هي: "تأدية المعنى الجليل واضحاً بعبارة صحيحة فصيحة، لها في النّفس أثر خلاب، مع ملاءمة كلّ كلام للمواطن الذي يقال فيه والأشخاص الذين يخاطبون"³.

وتنقسم البلاغة إلى ثلاثة علوم، وهي: علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع، فعلم المعاني: هو "تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيرها، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما تقتضيه الحال ذكره⁴، ويحتوي على عدة مباحث، منها: الخبر والإنشاء، الوصل والفصل، التقديم والتأخير، وغيرها، أما علم البيان، فهو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة⁵، فكانت مباحثه: التشبيه، والمجاز، والاستعارة، وغيرها، وعلم البديع، هو علم يبحث في طرق تحسين الكلام، وتزيين الألفاظ والمعاني بألوان بديعة من الجمال اللفظي أو المعنوي، وسيكذلك لأنه لم يكن معروفاً قبل وضعه⁶، ومن أهم أساليب علم البديع: الطباق، والمقابلة، والجناس، والسجع، وغيرها.

قامت البلاغة في بدايتها على الانطباع وتذوق الكلام، واستمر هذا المفهوم الانطباعي إلى غاية بداية العصر العباسي حين بدأت الدراسة الوصفية للسان العربي، فظهرت البلاغة بمفهوم جديد بقواعد ونظريات، وقد كان للقرآن كريم الدور الرئيس في تطوير اللغة لاستخدامه المجاز، فكانت هناك ألفاظ جاءت بمعان جديدة، كما أن أحاديث الرسول- صلى الله عليه وسلم- كانت تفيض بالمجازات والأساليب البلاغية المتنوعة لإحداث الإقناع في النفوس، وقد زاد الاهتمام بالمسائل البلاغية في العصر العباسي، أين كان للفقهاء والمفسرين وعلماء الكلام الأثر الكبير في تاريخ البلاغة، فقد تفتنوا إلى المميزات اللفظية والمعنوية في أساليب البيان والتعابير البلاغية، ومن أبرزهم: الجاحظ (ت225هـ)، وبشر بن معتمر (ت هـ)، وظلت الملاحظات البلاغية تنمو وتزدهر حتى انتقلت من تسجيل الملاحظات والتقاط الأخبار إلى وضع الدراسات المنهجية وصولاً إلى القرن الثالث الهجري، حيث ألف الخليفة العباسي "عبد الله بن معتمر (ت274هـ) كتابه "البديع" الذي يعد مساهمة كبيرة في تطوير جانب من البلاغة العربية، كما ويعتبر واضع أساس علم البديع بفصله عن البلاغة، وفي ذلك قد أحرز السبق فقال مبينا ذلك: "غرضنا في هذا الكتاب تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع"⁷، ومن أبرز أدباء هذه المرحلة: قدامة بن جعفر (ت337هـ) بكتابه "نقد الشعر"، أبو القاسم الحسن بن بشير الأمدي (ت371هـ)⁸ بكتابه "الموازنة"، أبو الحسن علي عيسى الرماني (ت382هـ)⁹ ورسائله "النكت في إعجاز القرآن"، القاضي

الجرجاني (392هـ)¹⁰ بمؤلفه "الوساطة بين المتنبي وخصومه"، وأبو الهلال العسكري (ت 395 هـ) صاحب "كتاب الصناعتين"¹¹.

وهكذا ازدهرت الدراسات البلاغية في المجال الوصفيّ التنظيريّ، وفي المجال التحليليّ التّطبيقيّ، ممّا جعل العلماء يكشفون عن أصول البلاغة وجمع المتفرق من عناصرها، وقد وضع عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) علمي المعاني والبيان في كتابه "دلائل الإعجاز" الذي وضع فيه نظرية علم المعاني والآخر "أسرار البلاغة" درس فيه نظرية علم البيان، إذ رفع قواعده وأحكم بناءه بعد الجاحظ، لذا يعدّ بحقّ واضع أسس البلاغة العربيّة، كما أسّس الجرجاني نظرية "النّظم" التي تجعل بلاغة الكلام في نظمه لفظاً ومعنى معاً؛ أي في الأسلوب¹²، وقد استفاد الزّمخشري (ت 537 هـ)¹³ ممّا قدّمه الجرجاني وطبقها في تفسير الكشّاف، وأبرز من يمثّل هذه المرحلة: ابن رشيق القيرواني (ت 456 هـ)، والوزير ضياء الدين بن الأثير (ت 637)، وغيرهما.

إن ما وضعه عبد القاهر الجرجاني من قواعد بلاغيّة، وأكمّله الزّمخشري بالتّطبيقات جعل علمي المعاني والبيان يكتمل، ولم يبق إلّا من يستقصي هذه القواعد البلاغيّة وينظّمها في كتاب يجمع متفرقها، وهو ما تحقّق فعلاً على يد أبي يعقوب السّكاكي (ت 626 هـ) الذي أدخل البلاغة في طور انتهى بها إلى الجمود، بعدما قسّمها إلى علوم ثلاثة، فتحوّلت إلى بلاغة تدريسيّة جامدة تدعو إلى الحفظ لا إلى تذوّق أفانين الأسلوب، وقد كان السّكاكي وكتابه "مفتاح العلوم، والخطيب القزويني (ت 739 هـ)¹⁵ وكتابه "الإيضاح في علوم البلاغة"، أفضل من مثلاً هذه المرحلة.

ثانياً: الأسلوبية.

أصبحت الأسلوبية بحقّ من أهمّ المناهج اللّسانية الوصفيّة، فهي منهج لساني منبثق عن اللّسانيات العامّة، بعدما استثمرت أفكار فريدناند دي سوسير التي جمّعت في كتابه "محاضرات في علم اللّسان العام"¹⁵، ومع كلّ ذلك فقد تعدّدت المصطلحات العربيّة التي تشبه مصطلح الأسلوبية في مقابل المصطلح الغربيّ "la stylistique"، فبعد الاطّلاع، وجدنا ثلاثة مصطلحات عربيّة تقابل المصطلح الغربيّ "stylistique"، وهي: الأسلوبية، وعلم الأسلوب، والأسلوبيات، لم تلق التّداول نفسه، "فصياغة المصطلح لها ثوابت معرفيّة ولها نواميس لغويّة عامّة كما لها مسالك نوعيّة خاصّة، وكلّ ذلك يمثّل الآليات التي تقتننها المصطلحات العلميّة والفنيّة"¹⁶.

وبالعودة إلى مصطلح "الأسلوبية" نجد أنه يترَكَّب من جذرهو "الأسلوب"، واللاحقة (الياء والتاء) التي تشير إلى العلم، بهذا التقسيم يقابل مصطلح "La stylistique" الذي ينقسم بدوره إلى الجذر "Style" ويعني الأسلوب، واللاحقة "Ique" التي تشير إلى العلم، بالتالي فهذه الترجمة أقرب إلى الدقة، وأبرز من يتبَيَّ هذا المصطلح (الأسلوبية) عبد السلام المسدي، ولعلَّ عنوان كتابه (الأسلوبية والأسلوب) خير شاهد، أما مصطلح الأسلوبيات فهو قليل الاستعمال في حقل الدراسات النقدية العربية، ويرى مستعملوه أنه الأنسب في مقابل المصطلح الغربي "La stylistique"، وحجتهم في ذلك أنه جرت العادة لتسمية العلوم إضافة الألف والتاء في نهاية اللفظ، فنقول على سبيل المثال: "صوتيات ولسانيات"، فكان الأقرب والأدق في نظر بعضهم، على أننا نجد البعض الآخر يزاوج بين استعمال مصطلح "الأسلوبية"، ومصطلح "علم الأسلوب" ومنهم سعد مصلوح، شكري محمد عياد، وصالح فضل ... وغيرهم، ومنهم من يجعل مصطلح الأسلوبية هو نفسه مصطلح علم الأسلوب عكس فريقا آخر من النقاد ممن اجتهدوا في التفريق بينهما، وعلى رأسهم: "عبد السلام المسدي"، وتبيّن ذلك من خلال مقدّمة كتابه المشهور "الأسلوبية والأسلوب"¹⁷، في حين يرى أبو العدوس الأسلوبية ذلك العلم الواسع إذ تتجلى رحابته من خلال مختلف الموضوعات التي يعالجها، وفي المقابل يكون علم الأسلوب منضبطا من خلال موضوعاته ودقته¹⁸.

ونخلص إلى القول أنّ هذه المصطلحات تصبّ في وعاء واحد، ولكننا نقرّ أنّ مصطلح الأسلوبية قد فرض نفسه تداوليا على الدارسين، فما الأسلوبية؟ ومن أين جاءتنا؟ اشتقت الأسلوبية من الأسلوب الذي يشير إلى دلالات مختلفة باختلاف الأقاويل التي ذكرت فيه، وباختلاف العصور التي استخدم فيها، ويرجع أصله إلى مادة "سلب"، جاء في لسان العرب: "فيقال للسطر من النّخيل أسلوب، وكلّ طريق ممتد فهو أسلوب...، والأسلوب الطّريق، والوجه، والمذهب ...، ويجمع أساليب ...، والأسلوب، بالضّم: الفنّ، يقال: أخذ فلان في أساليب من القول؛ أي: أفانين منه"¹⁹، وانطلاقا من ذلك يظهر أنّ دلالة هذه الكلمة قد تغيّرت وتطوّرت، فبعد أن كانت تستخدم للدلالة على السّطر من النّخيل أصبحت تدلّ على أفانين القول، فقد انتقل مفهوم الأسلوب من الدلالة الماديّة حيث كان يشار به إلى الطريق الممتد الذي يتحدّد عن طريق حاسة البصر إلى

الدلالة معنوية؛ أي: الفن والإبداع في القول، وهو المفهوم ذاته الذي نجده عند ابن خلدون (ت505هـ) بمصطلح آخر، هو مصطلح المنوال والقالب؛ حيث يقول: "... ولنذكر هنا مدلول لفظة الأسلوب عند أهل هذه الصناعة وما يريجون بها في إطلاقه، فالعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذي تنسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه"²⁰.

غير أنّ للأسلوب دلالات مختلفة إذا استعملت هذه اللفظة خارج هذه الصناعة، فهي من الكلمات الشائعة الاستعمال في مختلف مظاهر الحياة، ويبقى الباحث في المجال اللساني يعرف عجزاً في تحديد مفهوم هذا المصطلح بشكل دقيق، ولعلّ هذا ما يؤكّده الباحث محمد العمري عندما قال: "ورد على كلمة "Style" كثير من المعاني حتّى صار من الصعب تحديدها بتعريف واحد، وهذا راجع إلى أنّ هذه الكلمة لا تخصّ المجال اللساني وحده، بل استعملت في مجالات أخرى عديدة من مجالات الحياة اليومية ...، غير أن طبيعته لم تحدّد بدقة حتّى في المجال اللساني،..."²¹.

نؤيد حقيقة ما قاله هذا الباحث، فمن الصعوبة ضبط المصطلحات في أي مجال كان، ولكنّه لم يشر إلى سبب آخر نراه يشكّل صعوبة لا تقلّ عن الصعوبة التي ذكرها هذا الباحث، والمتمثلة في أنّ هذا المصطلح غريب - كما سيأتي الحديث عنه لاحقاً - فهو مترجم، ونحن نعي صعوبة الترجمة وما يلحقها من نقص وخلل، لذا يقال: "المترجم خائن".

والناظر في دلالة الأسلوب قديماً عند الغرب يجدها قد لقت التغيّر نفسه، فلفظة "STYLE" المشتقة من الأصل اللاتيني تعني القلم، وفي كتب البلاغة اليونانية القديمة كان الأسلوب يعدّ إحدى وسائل إقناع الجماهير، فكان يندرج تحت علم الخطابة، وخاصّة الجزء الخاصّ باختيار الكلمات المناسبة لمقتضى الحال"²²، كما قيل أنّ أصل هذه الكلمة لاتيني (استيلوس) وتعني (الأزميل)، أو (المنقاش) للحفر والكتابة، وقد كان اللاتينيون يستعملونها مجازاً للدلالة على شكلية الحفر، أو شكلية الكتابة، ثمّ مع الزمن اكتسبت دلالتها الاصطلاحية، فصارت تدلّ على الطريقة الخاصة للكاتب في التعبير"²³.

وتأسيساً على ما تمّ عرضه يتبيّن أنّ دلالة الأسلوب - سواء قديماً أم حديثاً، عند العرب أم الغرب - تغيّرت وتطوّرت عبر العصور، ولا يوجد فرق بين تلك المدلولات إلّا بحسب السياق الذي ترد فيه الكلمة، كما نتبيّن أيضاً وجود تداخل بين مصطلح

الأسلوب ومصطلح البلاغة، ويؤكد ذلك محمد عبد المنعم خفاجي وآخرون فيقول: "ارتبط مصطلح الأسلوب فترة طويلة بمصطلح البلاغة la rhé torique حيث ساعد على تصنيف القواعد المعيارية التي تحملها البلاغة إلى الفكر الأدبي والعالمي منذ عهد الحضارة الإغريقية وكتابات أرسطو"²⁴.

لم يبتعد كثيرا مدلول الأسلوب قديما عما يدلّ عليه مصطلح "الأسلوب" اليوم، إذ يشير إلى طريقة المبدع في نسج النصّ الأدبيّ، فالأسلوب إذن: هو طريقة الكاتب أو الشّاعر الخاصّة في اختيار الألفاظ وتأليف الكلام، وإبرازها في صورة مناسبة، ومن الأسلوب كانت الأسلوبية، التي تأرجت بين من اعتبرها منهجا، وبين من اعتبرها علما قائما بذاته، وستبين حقيقة ذلك من خلال عرض جملة من تلك المفاهيم التي أعطيت لمصطلح الأسلوبية.

عرّف برنرد شبلنر الأسلوبية قائلا: "الأسلوبية فرع من علم اللّغة النظريّ، حيث تحتلّ مكانها بجانب النظرية النّحوية..."²⁵

هذا المفهوم يركّز على الجانب اللّغوي في النصّ، فتصير الأسلوبية كأداة كشف عن الانزياحات والانتهاكات التي تكون ضد عرف استعمال اللّغة داخل النصّ، وهو ما يجعل البحث الأسلوبيّ في علاقة التقاء مع المفهوم الذي يحمله مصطلح آخر هو مصطلح الشّعريّة، وإلى ذلك ذهب صلاح فضل في كتابه "شفرات النصّ"، فيقول: "نرى نقطة التماس الحقيقية بين البحوث الأسلوبية والشّعريّة، بحيث تصبح انجازات التحليل الأسلوبيّ، التي تستطيع التقاط الخواص اللّغوية المكوّنة لأدبيّة النصّ والمحدّدة لمظاهره الجماليّة من صميم الشّعريّة؛ لأنّها تكشف عن كيفية نجاح النصّ في تحقيق الوظيفة الشّعريّة عبر مجموعة من الإجراءات التحليليّة السّديدة"²⁶.

ويظهر من قوله أنّ وظيفة الأسلوبية الكشف عن شعريّة النصّ: أي مواطن الجمال فيه.

ونبين من ذلك أنّ الأسلوبية نوع من الدّراسات التّقديّة فهي تركّز اهتمامها الأوسع على اللّغة الأدبيّة لاكتشاف بعض القوانين الخاصّة بالنّص الأدبيّ ورصد خيرات الأديب لنسج لغة نصّه، لذا اعتبرها البعض منهجا نقديا، ومنهم النّاقّد الفرنسي بيير جيرو في كتابه الأسلوبية "La stylistique":

" « La stylistique est une rhétorique moderne sous sa double forme ; une science de l'expression et une critique des styles individuels ; mais cette définition ne se dégage que lentement ; et ce que lentement que la nouvelle science du style reconnaît son objet, ses buts et ses méthodes. »²⁷

«فهي منهج جديد ينطلق من مفهومين يتعلّق الأول بنظام التعابير، أمّا المفهوم الثاني فيرتبط بنقد الأساليب الفردية، وبهذا المفهوم الذي تطوّر ببطء عرف علم الأسلوب موضوعه وهدفه ومنهجه»²⁸.

فمفهوم الأسلوبية عند (بيير جيرو) تتلخّص في كونها منهجا نقدياً يهتم بدراسة الأساليب الفردية في الكتابة: أي أنّ موضوع الأسلوبية هو الأسلوب، وهدفها هو البحث عن الخصائص الفردية في أسلوب كلّ كاتب، وقد صدق (بوفون) حين قال: "الأسلوب هو الإنسان نفسه"²⁹.

في حين هناك من اعتبرها علماً، فقول: "هي الدراسة التي تركّز على الأشكال الأدبية للنص"³⁰.

ومن خلال ذلك نتبيّن أنّ مفهوم الأسلوبية يتعدّد بتعدّد الاتجاهات التي ينظر من خلالها لها، فقد انطلق البعض من بنية الأسلوب³¹، وقد مثّل هذا المفهوم رواد الاتجاه البنيويّ - ومن بينهم (ريفاتير) - ومنهم من انطلق من تحديد الوظيفة التعبيرية، وهو ما نجده عند (بالي)، وتجدر الإشارة أنّ أسلوبية (بالي) هي من أنواع الأسلوبية التي تبناها الكثيرون فيما بعد.

وبالنظر إلى مفهوم الأسلوبية عند النقاد العرب نجدها مترجمة عن مفهوم الأسلوبية عند الغرب، ويرجع الفضل في ذلك إلى عبد السلام المسديّ الذي نقل المصطلح إلى الدراسات العربية، ويتّضح مفهوم الأسلوبية عند من خلال المزاوجة بين علميتها وفتيتها، فيقول: "يزدوج المنطلق التعريفيّ للأسلوبية في بعض المجالات الأخرى، فيمتزج فيه المقياس اللسانيّ بالبعد الأدبيّ الفنيّ استناداً إلى تصنيف عمودي للحدث البلاغيّ، فإذا كانت عملية الإخبار علة الحدث اللسانيّ أساساً فإنّ غائية الحدث الأدبيّ تكمن في تساؤل علميّ ذي بعد تأسيسيّ يقوم مقام الفرضية الكلية: ما الذي يجعل الخطاب الأدبيّ الفنيّ مزدوج الوظيفة والغاية؟"³²، وهناك من اجتهد في تعريفها، ومن بينهم محمّد عبد المطلب بقوله: "إنّ الأسلوبية ترتكز على تناول علم اللغة الأدبية، لأنّها في نظره تمثل التنوّع الفرديّ المتميّز في الأداء بما في ذلك من وعي أو عفوية أو انحراف،

خاصّة وأنّ اختلاف استخدام اللّغة عند الأفراد يفرض علينا دراستها وتفحص بنياتها"³³.

ومن خلال ذلك يمكن استنتاج أنّه من خلال المفاهيم الّتي أعطيت للأسلوبية باختلاف اتّجاهاتها أفرز ذلك عدّة أنواع، ومنها: الأسلوبية التّعبيرية³⁴، الأسلوبية البنيويّة³⁵، الأسلوبية التّفسيّة، الأسلوبية الإحصائيّة³⁶، والجامع بينها فهي مهمّة الكشف عن الإمكانات الفرديّة، والسّمات الإبداعية المتميّزة عن طريق انتقاء الألفاظ والتّراكيب غير المألوفة، من خلال انزياحها عن نمطيّة الأعراف المستعملة إلى استعمال جديدة، فضلاً عن حملها شحنات عاطفية تزيد من جماليّة النصّ.

وكما هو ظاهر فإنّ منشأ الأسلوبية غربيّ، رغم بعض الاجتهادات الّتي تسعى إلى إثبات أنّ لها وجود في التراث النّقديّ العربيّ، فأغلب النّقاد يؤكّدون على أنّ ميلاد الأسلوبية كان على يد شارل بالي سنة 1902م حيث أرسى قواعدها النّهائية، ومن النّقاد من يذهب عكس هذا الرأي، ومنهم محمّد عبد المنعم خفاجي فيقول: "منذ الخمسينات من هذا القرن أصبح مصطلح الأسلوبية Stylistiques يطلق على منهج تحليلي للأعمال الأدبية، يقترح استبدال "الذّاتية و"الانطباعية" في النقد التقليدي بتحليل "موضوعي" أو "علمي" للأسلوب في النصوص الأدبية"⁴⁰.

وفي الحقيقة أنّ هذا الكلام قريب من الصّحة، ذلك أنّ اللّسانيات كانت ثائرة على المناهج القديمة، والأسلوبية سليلّة الشّجرة اللّسانية الحديثة، ولكن يربط الكثيرون نشأة الأسلوبية ببعض مؤلّفات شارل بالي الّتي ظهرت سنة 1902م، ومنهم أبو العدوس الّذي يقول: " إنّ أوّل إرهابات علم الأسلوب تظهر عند شارل بالي الّذي نشر عام 1902م كتابه " مقال الأسلوبية الفرنسيّة"، ثمّ تلاه بكتاب آخر هو "الوجيز في الأسلوبية"، على أنّ أسلوبية بالي لم تخرج من عباءة عالم اللّغة كثيراً، وخلاصة القول عنده: إنّ المضمون الوجداني للغة هو عماد أسلوبية، وهو بذلك يهتم بدراسة اللّغة مفردات وقواعد، ولا يهتم بدراستها على أنّها نموذج خاصّ يستخدمه الفرد في ظروف معينة لأهداف معيّنة.⁴¹

وبذلك العرض يتحدّد تاريخ نشأة الأسلوبية عند الغربيين لارتباطها بإصدارات شارل بالي (Charles Bally) " سنة 1902م، فكان مؤسساً لقواعد علم الأسلوب التّهائية، أمّا مصطلح الأسلوبية في العربيّة فقد كان عبد السلام المسدي سبّاقاً إلى نقله وترويجه

بين الباحثين، ولكن باختلاف المنشأ الأسلوبية عن منشأ البلاغة العربية نجد مع هذا تقارباً بين العلمين، ويمكن التأكيد من ذلك من خلال الوقوف على نقاط الالتلاف، وهذا بيانه:

1 - (كانت البلاغة فناً للتعبير الأدبي، وقاعدة في الوقت نفسه هي - أيضاً- أداة نقدية تستخدم في تقويم الأسلوب الفردي، وهي فن أدبي، وهاتان سمتان قائمتان في الأسلوبية المعاصرة.

2- إنّ مبادئ الأسلوبية قائمة على جذور لغوية وبلاغية، ويمكن إبراز ذلك من خلال الكشف عن وجه التلاقي حول مفهوم اللغة، الذي ساعد في ظهور الدرس الأسلوبي الغربي والدرس البلاغي العربي على الساحة الأدبية، وهذا يمكن الربط بين نظرة دي سوسير للغة وتعريف عبد القاهر الجرجاني والسكاكي للبلاغة، إذ ينظر دي سوسير للغة على أساس أنها مكوّنة من رموز اصطلاحية، أصوات ثم كلمات ليس لها دلالة ذاتية وإنّما تتحدّد دلالة كلّ عنصر من عناصرها من خلال علاقته بالعناصر الأخرى، وهي الفكرة ذاتها التي شكّلت نقطة ارتكاز في تعريف عبد القاهر الجرجاني للبلاغة، فهي تأخي معاني النحو بحسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام⁴²، وتعريف السكاكي لها بأنّها تتبّع خواص التركيب⁴³.

3- البلاغة في تعريف البلاغيين العرب "مطابقة الكلام لمقتضى الحال"، وهذا التعريف يلتقي مع وجهة نظر الدرس الأسلوبي فيما يسمى بـ "الموقف"، بل إنّ عبارة "مقتضى الحال" لا تختلف كثيراً عن كلمة "الموقف"، وبخاصة إذا قصد بكلمة "الموقف" مراعاة الطريقة المناسبة للتعبير، من حيث اختيار الكلمات والتراكيب ذات الدلالات والإيحاءات.

5- يمكن القول أنّ لجهود عبد القاهر الجرجاني في كتابه "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" استثناء في هذا المجال إذ أقام صلة بين الألفاظ والمعاني التي تتضافر جميعاً وتشكّل في النهاية ماهية العمل الأدبي ولا تمييز لأي من العنصرين على الآخر، وذلك من خلال نظرية النظم، والتي تعني ترتيب الكلام وتأليفه بحيث يكون كاشفاً عن المعاني في الذهن، وما قاله الجرجاني في نظرية النظم يطابق ما قاله علماء الأسلوبية حين نظروا إلى النص باعتباره كيانه واحداً متصلاً.

6- عرّف البلاغيون العرب بلاغة الكلام بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال⁴⁴ وهو ما قاله المنظرّون لتحديد مفهوم الأسلوب، فكلاهما يفترض حضور المتلقي في العملية البلاغية إلا أنّ الأسلوبية قد جعلت هذا " الحضور " شرطاً ضرورياً لاكتمال عملية الإنشاء، بل إنّ المتلقي - من المنظور الأسلوبيّ- هو الذي يبعث الحياة في النصّ بتلقيه وتذوقه.

7- ويظهر التقاطع بين البلاغة والأسلوبية من خلال علم المعاني، فعلم المعاني يهتم بدراسة الأسلوب والمعنى، وهو هدف الأسلوبية.

8- يلتقي علم البيان مع الأسلوبية في تأدية الفكرة الواحدة بصياغات لغوية مختلفة، وبطرق تتميز بالتغاير مما يعطى للألفاظ معاني جديدة، لذا تلجأ البلاغة والأسلوبية إلى العدول أو كما تصطلح عليه الأسلوبية الانزياح.

9- محور بحث البلاغة والأسلوبية الأدب وأن كلا منهما نشأ منبثقاً من علم اللغة وارتبط به.

ومنه فإنّ الأسلوبية لا تعني القطيعة الكاملة مع التراث البلاغيّ كما يزعم البعض، فأسلوبية التعبير عند شارل بالي مثلاً تنبع من البلاغة القديمة، وإن كانت تستخدم وسائل تحليلية حديثة، وهو ما قام به جاكبسون ليفسر الأشكال البلاغية على ضوء مبادئ علم اللغة الحديث⁴⁵.

يمكن القول إنّ الأشكال البلاغية المختلفة هي الجذور التي نمت عليها الأسلوبية فلا يمكن الفصل بين البلاغة والأسلوبية بأيّ شكل من الأشكال؛ لأنّه بالنظر إلى المباحث البلاغية من استعارة أو كناية أو تشبيه وغيرها، نجد أنها أنظمة كاملة من الوسائل اللغوية الفاعلة في نسج النصّ لها وجود في الأسلوبية، فهما تقدّمان صوراً مختلفة من المفردات والتراكيب ذات الأساليب المبدعة، والقيم الجمالية المؤثرة، ورغم هذا الائتلاف إلا أنّ الاختلاف قائم بين هذين العلمين، فمزية الاختلاف تصنع التميّز والانفراد في كلّ منهما، ويمكن ذكر بعضها في النقاط التالية، وهي:

1- يشكّل المخاطب والمخاطب خلافاً بين البلاغة والأسلوبية، ففي الوقت الذي عنيت فيه الأسلوبية بالمخاطب، وبحالته النفسية والاجتماعية عناية كبيرة بوصفه أحد الأركان الثلاثة للعملية الإبداعية، فإنّ البلاغة أغفلت المخاطب وحالته النفسية والاجتماعية بشكل عامّ، واعتنت بحالة المخاطب اعتناء بالغاً.

2- يعدّ المنطق الأرسطي المنهج الذي ضببطت فيه علوم البلاغة، في حين تحدّدت مجالات الأسلوبية في إطار اللسانيات المعاصرة⁴⁶، فاعتماد البلاغة على المنطق حولها إلى علم جامد قوامه التعريفات، والتقسيمات غاب عنه الحسّ الجماليّ، في حين نجد أنّ الأسلوبية المعاصرة - كما يرى بعض الأسلوبيين - "اليوم هي أكثر أفنان الأسنية صرامة على ما يعتري غايات هذا العلم الوليد ومناهجه ومصطلحاته من تردد، ولنا أن نتنبأ بما سيكون للبحوث الأسلوبية من فضل على النّقد الأدبيّ والأسنية معا"⁴⁷.

3- يغلب على علوم البلاغة طابع التجزئة أي تجزئ الظاهرة الأدبية، بينما تغلب تصورات البنية والمنظومة في كثير من الدّراسات الأسلوبية⁴⁸، فالبلاغة لم تحاول الوصول إلى إنتاج عمل أدبي كامل، وهذا العجز مهّد لحلول الأسلوبية في مجال الإبداع، فكان بديلا عن علم قائم على التّجزئة، ويتّضح هذا الطّابع في مباحث البلاغيين العرب المتمثلة في كتابات السكاكي مثلا، الذي عرف بتجزئة البلاغة إلى أقسام، والأقسام إلى أنواع، وهذه الأخيرة إلى أصناف فكانت عناية كثير من البلاغيين العرب في النص الأدبي متمحورة حول هذه الأقسام البلاغية (المعاني والبيان والبديع)، وظلت علوم البلاغة الثلاثة منفصلة، ولم تصل إلى تناول بنية النص عامّة، وما أغفلته البلاغة حرصت على تحقيقه الأسلوبية، فقد اهتمّت الأسلوبية بدراسة داخلية للنّص باعتباره نسقا واحدا، استخلاصا لسماته الإيجابية والجمالية من خلال صياغته اللّغوية، فالتّحليل البلاغي حصر نفسه في الجملة بوصفها أكبر وحدة قابلة للتّحليل فتركز عليها، أمّا التّحليل الأسلوبي فقد اتّجه إلى النّص أين يجري تطوير وسائل التّحليل اللّغويّ، وللكشف عن بنية النص الكبرى تتخذ الأسلوبية في عملها مناهج متعدّدة لعل أهمّها: منهج التّحليل النّصي الإحصائيّ ومنهج الانزياح أو العدول.

4- البلاغة علم معياري يرسل الأحكام التقييمية، ويرمي إلى تعليم مادته، بينما تنفي الأسلوبية عن نفسها كلّ معيارية، فهي لا تسعى إلى غاية تعليمية⁴⁹، فالقوانين التي يصل إليها علم البلاغة قوانين مطلقة لم يلحقها التّغيير، قوانين صارمة تراعى دائما كما تراعى قوانين النحو؛ لأنّها تستند إلى معايير ومقاييس معينة، وجدت قبل وجود العمل الأدبيّ بهدفه تقييمه ثمّ مطابقتها بمعاييرها، لذا كانت علما معياريا، بينما الأسلوبية فإنّها تتعامل مع النّص بعد أن يولد وهي لا تنطلق في بحثها من قوانين مسبقة، ولا تحاول

مطابقتها بما لديها، كما أنّها لا تقدّم انتقاداً عن جودة أو رداءة العمل، فهدفها تحليل الأساليب المستعملة لكشف شعريّتها.

5- "تسعى الدّراسات الأسلوبية المعاصرة إلى مقارنة الظواهر الأسلوبية التي تلاحظها في اللغة التي تدرسها بما يماثلها أو يقابلها في اللّغات الأخرى لكن البلاغة التقليدية ومنها البلاغة العربيّة القديمة قد أغفلت هذا الجانب من بحوثها، ويحتلّ منهج الأسلوبية المقارنة مكانة متميزة في دراسات بالي، حيث يعبّد في معظم مؤلفاته مقارنات بين اللّغتين الفرنسيّة والألمانيّة، فهو يعتقد أنّ هذه الطّريقة تؤهّل الدّارس لمعرفة هيكل اللغة الأساسيّ وبنيتها العامّة، وقد غيّبت البلاغة هذا الجانب، فقد ظلّت لفترات طوال تتخبّط داخل دائرة المنطق بين المباحث النحويّة والدلاليّة، ولم تهتد إلى المنهج المقارن، على الرغم من أنّ مبدأ المقارنة بين اللّغات كان حاضراً في أذهان بعض البلاغيين العرب، إلا أنّ هذه المقارنات كانت تحتاج إلى ضبط وتنظيم، ولعلّه ظهر من خلال تقسيم عبد القاهر الجرجاني الاستعارة إلى مفيدة وغير مفيدة، حيث أشار إلى أنّ غير المفيدة خاصة باللغة العربيّة أما المفيدة فتوجد في كلّ اللّغات"⁵⁰.

وبعد هذا العرض الموجز يمكن الوقوف عند أهمّ ما توصّلت إليه الدّراسة من نتائج، وهي:

1- لقد مثّل مبحث الإعجاز القرآنيّ مجالا واسعا تبلورت فيه أسس البحث البلاغيّ، ومع الوقت استوت أسسه وقواعده، وعندما امتزج الدرس البلاغي بمقولات المنطق والفلسفة تحوّل إلى علم معياري جامد وانقسم إلى ثلاثة أقسام، وهي: (المعاني، والبيان، البديع).

2- أحدثت اللّسانيات تغييرات جذريّة في أنماط التفكير اللّغويّ، وكان للدّرس البلاغيّ حظاً منه، فقد عرفت العقود الأخيرة اهتماماً خاصّاً بالبلاغة ضمن الدّراسات اللّسانية، ممّا جعل البلاغة القديمة تتوارى عن الأنظار لتحلّ محلّها الأسلوبية، هذه الأخيرة التي نهضت بعدما أغرقت البلاغة نفسها في المعيارية المتحرّجة ردحا من الزّمن، وبذلك عملت الأسلوبية تجديد أسلوبها في معالجة النّصوص بطرق لسانية حديثة.

3- لقد بيّنت هذه الدّراسة أنّ الأسلوبية غربيّة الأصل، وقد تطوّرت بتطوّر علم اللغة أو لسانيات النّص، وقد ظهرت الأسلوبية تحت ثلاثة مصطلحات رآها البعض مترادفات،

والبعض الآخر نفى ترادفها، ولكن – كما سبقت الإشارة إليه- فإنّ (الأسلوبية، وعلم الأسلوب، والأسلوبيات) وجوه لعملة واحد.

4- الأسلوبية علم له أسس وقواعد ومنهج في الوقت ذاته، تهدف للكشف القيمة التأثيرية من ناحية جمالية ونفسية وعاطفية، وقد تعددت اتجاهات الأسلوبية من تعبيرية وبنوية وإحصائية ونفسية وغيرها نتيجة لاختلاف وتعدد النظر إلى هذا العلم، فمنهم من ينظر من زاوية المبدع، ومنهم من ينظر من زاوية المتلقي.

5- ثبت وجود نقاط التقاء بين العلمين، وبالرغم من وجود اختلافات لكن ذلك لا يثبت القطعة بين العلمين فكلّ له ظروف نشأته (البلاغة قديمة النشأة، والأسلوبية حديثة النشأة - فهي فرع من اللسانيات الحديثة -)، وتظهر هذه العلاقة في:
أ/ أوجه التشابه:

* كلاهما نشأ منبثقا عن علم اللغة وارتبط به.

* مجالهما واحد وهو اللغة والأدب.

* الأسلوبية استفادت كثيرا من مباحث البلاغة مثل: علم المعاني وعلم البيان.

* تلتقي الأسلوبية بالبلاغة العربية في نظرية النظم حيث لا فصل بين الشكل والمضمون.

* البلاغة تقوم على مراعاة مقتضى الحال، والذي تصطلح عليه الأسلوبية بـ الموقف.

ب/ أوجه الاختلاف:

البلاغة العربية.	الأسلوبية.
- علم معياري.	- علم وصفي ينفي عن نفسه المعيارية.
- يرسم الأحكام التقييمية.	- لا تطلق الأحكام التقييمية.
- يقوم على تصنيفات جاهزة: البلاغة تقوم على تصور الشيء تبعا لنموذج سابق فماهية الشيء تنسيق وجوده بالتعبير الفلسفي.	- تسعى إلى تحليل الظاهرة الإبداعية بعد أن تقرر وجودها أي تتعامل مع العمل الأدبي بعد ولادته.
- البلاغة تُعني بالمخاطب دون الاهتمام	- تهتمّ بالمخاطب والمتكلم معا.

بالمُتَكَلِّم.	
- البلاغة تربط بين علومها الثلاثة (معاني، بيان، بديع).	- أما الأسلوبية فتقوم بتحليل الأدبي في ثلاثة مستويات، وهي: * المستوى الصوتي (الاقاعي): يهتم بالنص بمتغيراته الايقاعية والتكرارات الموجودة، وكذا السجع، والجناس، والقافية، والتّنعيم، والنثر... * المستوى التركيبي: وهو ما يرتبط بعلم المعاني، والنحو. * المستوى الدلالي: يمكن من دراسة الكلمات المفاتيح، والصيغ الاشتقاقية وما يربط بعلم البيان.
- تطلق الأحكام القيمية على أجزاء من النص.	- لا تطلق أحكاما قيمية على أجزاء من النص؛ لأنها تعتبره بنية متكاملة.
- تعتمد على المقاييس الشكلية، ولذلك لا تدرس الخطاب الأدبي في شموله.	- مقاييس الأسلوبية شمولية كلية في تحليل النص.

وبذلك يتّضح أنّ الأسلوبية قد استفادت من مباحث البلاغة العربية الكلاسيكية، لكن الأسلوبية قد تقدّمت عليها في مجال علم اللغة الحديث، فلا مناص من الإقرار أنّ النقاد اليوم وجدوا ضالتهم في الأسلوبية بعدما اتّسع مداها، في حين أنّ البلاغة العربية الكلاسيكية أصبحت مجالا ضيقا ببقائها منحصرة في ثلاثة علوم.

ويمكن في الأخير تذييل هذا العمل المتواضع بجملته من التّوصيات، ومنها:

- 1- الدّعوة إلى قراءة مكثّفة عن الأسلوبية ومحاولة ضبط فلك دوراتها، ويكون ذلك من خلال قراءة مباشرة للمصدر الرئيس لهذا العلم، وعدم الاكتفاء بما تقدّمه التّرجمة.
- 2- الدّعوة إلى دراسة تطبيقية تبين نقاط الائتلاف والاختلاف بين البلاغة العربية والأسلوبية.

- 3- توسيع البحث في دائرة البلاغة العربيّة لاحتوائها على الكثير من الأسرار التي تتجاوز الحكم بتحجّرها، فالباحث الحدق هو الذي يوسّع آفاق أي علم، ويزيد من إثراء معامله.
- 4- استثمار ما تقدّمته اللسانيات العامّة والتّطبيقية من المناهج الحديثة تساعد على قراءة التّراث العربيّ -كالبلاغة مثلا - قراءة حديثة.
- 5- دراسة النّصوص الأدبيّة بتوظيف أحد اتّجاهات الأسلوبية أو المزوجة بين أنواعها.

هوامش البحث:

- 1- لسان العرب، ابن منظور، (420-419/8). (مادّة: ب ل غ).
- 2- البلاغة العاميّة، الصّعيدي، (ص: 7-8).
- 3- جواهر البلاغة، الهاشمي، (ص: 26).
- 4- الإيضاح في علوم البلاغة، (ص: 15).
- 5- المصدر نفسه، (ص: 5).
- 6- المصدر نفسه، (ص: 5-6).
- 7- البحث البلاغيّ عند العرب، أحمد مطلوب، (ص: 43).
- 8- البلاغة تطوّر وتاريخ، شوقي ضيف، (ص: 78-83).
- 9- المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.
- 10- المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.
- 11- المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.
- 12- المرجع نفسه، (ص: 160-161).
- 13- المرجع نفسه، (ص: 265-266).
- 14- المرجع نفسه، (ص: 287-289).
- 15- هي محاضرات متفرقة جمعها تلامذة دي سوسير في كتاب واحد، هو: "محاضرات في علم اللّسان العامّ".
- 16- المصطلح النّقدي، المسدي، (ص: 10).
- 17- ينظر: الأسلوبية والأسلوب، المسدي، (ص: 5).
- 18- الأسلوبية -الرؤية والتّطبيق-، أبو العدوس، (ص: 36).
- 19- لسان العرب، ابن منظور، (473/1). (مادّة: س ل ب).

- 20- المقدمة، ابن خلدون، (ص:72).
- 21- تحليل الخطاب الشعري، العمري، (ص:51). وكذا ينظر: البلاغة والأسلوبية – نموذج تحليل سيميائي، هنريش بليت، (ص:51).
- 22- ينظر: البلاغة والأسلوبية – نموذج تحليل سيميائي، هنريش بليت، (ص:51).
- 23- النص والأسلوبية – بين النظرية والتطبيق، بن ذريل، (ص:42).
- 24- الأسلوبية والبيان العربي، خفاجي وآخرون، (ص:12).
- 25- البلاغة والأسلوبية، أبو العدوس، (ص:37).
- 26- ينظر: شفرات النص – دراسة سميولوجية في شعرية القصد والقصيد، فضل صلاح، (ص:80).
- 27- Guiraud Pierre, La stylistique , P7
- 28- المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.
- 29- البلاغة والأسلوبية – نموذج تحليل سيميائي، هنريش بليت، (ص:52).
- 30- المرجع نفسه، (ص:59).
- 31- Riffatérre Michael, Essais de stylistique structurale, p35-36
- 32- الأسلوبية والأسلوب، المسدي، (ص:35-36).
- 33- البلاغة والأسلوبية، عبد المطلب، (ص:186).
- 34- الأسلوبية التعبيرية: تجعل الأسلوبية أداة أو وسيلة للتعبير، وقد مثلها شال بالي. ينظر: الأسلوبية والأسلوب، المسدي، (ص:41-42).
- 35- الأسلوبية البنوية: تركّز على النص باعتباره بنية معلقة، يجب فهمها انطلاقاً من ذاتها بعيداً عن العوامل الخارجية، وقد مثلها ريفاتير، ورومان جاكسون. ينظر: الأسلوبية وتحليل الخطاب – دراسة في النقد العربي الحديث، السيد نور الدين، (ص:62).
- 36- الأسلوبية الإحصائية: وتعمل على فحص النص الخطاب الأدبي لاستخلاص السمات الأسلوبية الغالبة عند مختلف الأدباء، وقد مثل هذا النوع ليوسبيتز. ينظر: البلاغة والأسلوبية – نموذج تحليل سيميائي، هنريش بليت، (ص:59).
- 37- مدخل إلى علم الأسلوب، شكري عياد، (ص:37).
- 38- الأسلوبية والبيان العربي، خفاجي وآخرون، (ص:11).

- 39- الأسلوبية – الرؤية والتطبيق-، أبو العدوس، (ص:38).
- 40- ينظر: المرجع السابق، (ص:11).
- 41- ينظر: الأسلوبية، – الرؤية والتطبيق-، أبو العدوس، (ص:44).
- 42- دلائل الإعجاز، الجرجاني، (ص:383).
- 43- ينظر: الإيضاح، الخطيب القزويني، (ص:15).
- 44- الأسلوبية – الرؤية والتطبيق-، أبو العدوس، (ص:83).
- 45- المرجع نفسه، (ص:88).
- 46- المرجع نفسه، (ص:67).
- 47- المرجع نفسه، (ص:69).
- 48- المرجع نفسه، (ص:70).
- 49- المرجع نفسه، (ص:73).
- 50- المرجع نفسه، (ص:80).